

عرض كتاب:

كلمة السر فى قصة نجاح عبود باشا..

عرض: سليمان جودة

اتجاه وزارة الإستثمار فى مصر إلى اصدار عدة كتب عن رواد الإستثمار فى البلد فكرة لها هدف ولم تصدر عن فراغ.. وقد كان الهدف محفوراً على غلاف كل كتاب ولا يزال!

السلسلة صدر منها حتى الآن كتابان، أحدهما عن محمد أحمد فرغلى "ملك القطن" كما كانوا يلقبونه قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، والثانى عن أحمد عبود باشا "الإقتصادى العصامى" كما إشتهر بهذا اللقب قبل الثورة وبعدها. وهناك كتب أخرى ورواد آخرون فى الطريق!

على غلاف الكتاب الأول وكذلك الثانى، عبارة واحدة تقول "التاريخ الإقتصادى المصرى حلقات متصلة ولا معنى للبحث عن مستقبل أفضل بمعزل عن إدراك معطيات الماضى ومتطلبات الحاضر. فالمسألة ليست صراعاً بين المراحل المتتالية، بقدر ما هى تكاملية

وتعبر عن الإمتداد، وتستثمر التجارب للنهوض وتجنب التعثر والإرتباك!"

وإذا كان كتاب أحمد عبود باشا، على سبيل المثال، يسعى إلى تكريس للقيم التى كان يعمل فى إطارها هذا الرجل، فهذا يكفى. وإذا كان يسعى من ناحية أخرى لتعريف من لا يعرف عنه وهم الكثيرون سوى إسمه، فهذا أيضاً سبب إضافى يجعل من مثل هذا الكتاب، عملاً يستحق الإشادة، بقدر ما يستحق الإشارة.

لقد نشأ أحمد عبود فى حى باب الشعرية، أحد أحياء القاهرة القديمة، وكانت نشأته فى أسرة بسيطة ورقيقة الحال، من الناحية المادية. والكتاب يصفه بأنه كان ينتمى إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، وكان أبوه يملك حماماً شعبياً فى الحى، وكان ابنه أحمد يعمل معه، وحين ذهب ليتعلم ثم يتخرج فى مدرسة المهندسخانة، التى هى أقرب ما تكون إلى كلية الهندسة حالياً، فإنه توجه إلى العمل فى مصنع كان يملكه خواجه إنجليزى، فى مدينة أرمنت بجنوب صعيد مصر.

والعجيب أن أحمد عبود قد عاد إلى المدينة نفسها فيما بعد، لا ليعمل فى واحد من مصانعها وإنما ليبنى فيها مصنع السكر الشهير، الذى إمتلكه هناك وإلى جواره بنى قصرًا فخماً كان يقيم فيه مع زوجته وابنته الوحيدة! وحين توجه أحمد عبود فى وقت مبكر الى فلسطين للعمل فى مجال المقاولات مع الإنجليز هناك، فإن هذه كانت البداية نحو إنطلاقه الكبير ليصبح فى وقت من الأوقات هو النموذج الأعلى للثراء المادى والنجاح فى مصر، وخصوصاً مرحلة ما قبل ثورة يوليو.. على وجه التحديد!

ووفقاً لأدب إحسان عبد القدوس، فإن أحمد عبود باشا، ظل يمثّل أشهر نماذج الثراء والنجاح فى المجتمع المصرى، ليس فقط قبل ثورة يوليو، وإنما بعدها أيضاً بقليل.. ولذلك تتكرر الإشارة إلى إسمه فى مواضيع عديدة من روايات إحسان، فضلاً عن رواية كاملة جاء فيها إسمه صراحة وهى رواية "شئ فى صدرى".

وقد جاء وقت إنتشرت فيه شائعة عن أن أحمد عبود باشا، قد دفع للملك فاروق خمسة ملايين جنية، لإسقاط وزارة نجيب الهاللى باشا، قبل قيام ثورة يوليو بعدة شهور قليلة... وهى شائعة ترددت وقتها، ولا تزال تتردد، تكلم عنها إحسان عبد القدوس نفسه فى رواية "حتى لا يطير الدخان" على لسان أحد أبطالها، ولكن أحدًا لم يستطع إلى اليوم أن يؤكد، أو يقدم ما يثبت أنها وقعت على سبيل اليقين.

ولكن المؤكد، أن عبود باشا قد ساهم فى شتى المجالات الاقتصادية والصناعية، من خلال أنشطة متعددة من أهمها صناعة السكر والنقل البحرى وصناعة الأسمدة والكيماويات والتقطير والنسيج، فضلاً عن مساهمات أخرى فى مجالات التأمين والبنوك والفنادق والسياحة. وقد كان الأغلب الأعم من الساحات التى أقتحمها عبود باشا، حكرًا على الأجانب وحدهم وإستطاع الرجل بكفاءته وجديته وإصراره أن يزاحمهم ويتفوق عليهم وينتزع منهم ما كان خالصًا لهم.

يبين الكتاب أن مجلة "المصور" كانت قد سألت عددًا من أقطاب مصر عام ١٩٥٠، عن أعظم خمس شخصيات يراها الواحد منهم، فى الشرق، وعن أعظم شخصيات يراها القطب نفسه، فى الغرب، خلال خمسين عامًا مضت. كان عبود باشا واحدًا من هؤلاء الأقطاب، الذين سألتهم المجلة، وكان إختياره للأشخاص الخمسة فى الشرق على النحو التالى: الملك فؤاد، سعد زغلول، الملك فاروق، غاندى، ونهرو! وفى الغرب كان تقدير عبود باشا أن عظماء الخمسة هم هنرى فورد وروزفلت وتشرشل وهنرل وستالين.

وينتهى الكتاب، إلى أن هذا الإختيار يدل عند تأمله، وتأمل معانيه، أن شخصية عبود باشا، كانت لها خمسة مفاتيح، يمكن فهمها، من خلالها:

المفتاح الأول، الرغبة فى التعايش مع النظام السياسى دون صدام ولا ضير فى سبيل ذلك إذا جامل وبالغ فى المجاملة. وليس ذلك بالغريب على عبود باشا، فعند زيارة الملك فاروق لجناح شركاته فى المعرض الزراعى الصناعى عام ١٩٤٩، صرح الباشا للصحفيين وقال: إن تشريف جلالة الملك لمنشأتى وتشجيعه لى، خير حافظ على المضى فى سبيل رفع شأن مصر اقتصاديًا، فى عهد جلالته الزاهر!

المفتاح الثانى، هو التشبث بالقيم الوطنية التى تستدعى الإجماع. فالأمة المصرية لاتجتمع على باطل وزعامة سعد زغلول من الثوابت التى تتجاوز السياسة الحزبية!

المفتاح الثالث، هو الإعلاء من شأن الإعتدال فى عملية التحول السياسى والإجتماعى والإقتصادى حتى لا يهتز الإستقرار. ذلك أن البديل هو الفوضى والاضطراب والترجمة العملية هى أن يرتبك الإقتصاد وتتعطل الأعمال وتتهدد المصالح!

المفتاح الرابع، يتمثل فى العلم.. فبغيره لن يكون تقدم أو إزدهار. ولا معنى للعلم بمعزل عن العمل.. فهو الترجمة المباشرة لتكاملية النظرى والعلمى!

أما المفتاح الخامس، فهو القوة، فالإيمان بها مدخل بالغ الأهمية فى فهم شخصية عبود باشا.. لكنها القوة المقترنة بالعقل والإدارة.. قوة الحكمة والرؤية الشاملة.

قد يكون مهمًا أن نشير، إلى أن عبود باشا كان رئيسًا للنادى الأهلى لمدة خمسة عشر عامًا متواصلة من عام ٤٦ إلى عام ١٩٦١م. غير أن هذا بالنسبة لفهم شخصيته، ليس هو الأهم.. فقد كان الرجل، مما يبدو من سيرته وعمله، راغبًا طول الوقت فى أن يجيد ما يفهم فيه من عمل.. ولذلك إرتقى الذروة فى كل صناعة دخل فيها، وأثبت أن الدولة إذا دخلت شيئًا، أفسدته! فقد إنهارت إمبراطوريته فى لحظة.. ليس لأنه تركها إلى لندن ليموت هناك، ولكن لأن الدولة سيطرت عليها... فالأمل فى النجاح على كل مستوى، كما تقول سيرته، هو الفرد.. لا الدولة!